من مآسي التاريخ

مصرع الدون كارلوس

للأديب محمد محمد مصطفى

قال الأستاذ محمد عبد الله عنان في كتابه « تاريخ المؤامرات السياسية »

« ... ما أفاضت سيرة من سير القصور في القرن السادس عشر على دولة الجمال والشعر قدر ما أفاضت سيرة الدون كارلوس ، وما تبعث قصة إلى النفس من روعة وكآبة قدر ما تبعث أساطير هذه القصة العجيبة

وأي سيرة أدعى للروعة والوحشة من سيرة ملك يقضي بالموت على ولده لمؤامرة قيل إنه دبرها لقتله . ثم يذهب في بطشه إلى حد تنفيذ هذا الحكم

هذا ما يحفظ التاريخ من سيرة فيليب الثاني ملك أسبانيا وولده الدون كارلوس »

فوجئ الأمير بتحية صدرت إليه من خلفه ، فاتجه ببصره إلى مصدر الصوت فرأى صديقه الأمين الكونت « أجونت » ... فقل اضطرابه قليلاً وسأل الكونت :

— أتبعك جواسيس الملك الليلة يا كونت ؟

فابتسم هذا في خبث وأجاب :

— أبداً يا مولاي ، فقد ألحت صورة الخمر على أعينهم فرنق بها الكرى فدلفت إلى جناحك من الباب الخلفي بعد أن تخطيت الأهوال في اجتياز الحدود سراً ...

— أبخير أتيت ؟

فأجاب والابتسامة لا تفارق شفتيه :

— بكل خير

ثم أخرج الكونت من ثنايا ثوبه ورقة نشرها أمام ولي العهد ، وجعل يمر عليها بأصبعه هامساً للأمير :

— بين شعاف هذه الجبال يا مولاي ستكمن قواتي ، فإذا ما جن الليل انضمت إليها قوات أمير أورانج تتبعها قوات الكونت هورن[1] . وعلى سموك اجتياز الحدود سراً مساء منتصف مايو القادم لتعودوا على رأس هذه الجيوش إلى أسبانيا لتقل بها عرش هذا الشيخ الذي لم يتورع الليلة عن الزواج بطفلة في سن حفيدته

* * *

وحمل الدون كارلوس آماله وأحلامه ، ومضى بها إلى حديقة القصر الملكي يرسل بين الحين والحين صفيراً خافتاً حتى عثر بين الخمائل على دوحة استذرى بها حتى لا يناله برد الليل إن غلبه النوم تحتها

* * *

وتسربت خيوط الفجر من ثوب الليل ، ولما ينهض لعروس الملك جفن ، وتشعر الفتاة لرؤية عريسها الشيخ الذي يغط إلى جانبها بهم يجثم على روحها ، فتتسلل مارقة إلى حديقة القصر الملكي ، وتسير بين رياضه على غير هدى ...

سارت بين الخمائل تناجي النجوم وقلبها الغض يخفق في عالم مجهول . ثم أفلتت منها صرخة خافتة إذ رأت أمامها شاباً كأنما قد تثاءبت عنه الأرض

فإذا سألته السبب قال : إن الشعب لا يحب ولا يشجع إلا هذا اللون ، وما درى أنه وحده الذي يقع عليه أغلب هذا الوزر . المعروف أن المغني الحق هو الذي لا يعرف إلا فنه ، وفنه فقط ولكن عبد الوهاب أراد أن يخالف هذه النظرية فعرف الفن وغير الفن ، وتأثر بميول ضد ميول وقد عرف عنه ذلك ومع كل فهو يصر على لونه ...

إن الفن موطنه السماء؛ ومن في السماء فوق الجميع وللجميع. فمن ترك فنه وسماءه ليعيش فوق الأرض جرفه التيار الذي لا يرحم

محمد السيد المرسي

(١) أمراء الأراضي السفلى (هولاندة والبلجيك) وكانت وقتئذ تابعة لأسبانيا

— ترى بعثت روعة هذا الفجر فى نفسك الاكتئاب أيها الشاب؟

— وى ... من أنت ... ومن أى فردوس فررت يا فتاة ؟

فيشرق الابتسام على ثغر الفتاة وتقول للشاب الماثل أمامها فى سذاجة الطفولة ومرحها :

— الملكة ... ومن أنت ؟

فيقف الدون كارلوس فى تؤدة ويشخص ببصره إلى الصبية يعبث الهواء بشفوف ثوبها فيبرز نهداها الصغيران، ويظهر تقاسيم جسمها الفتان ، ويتمتم الشاب فى خفوت :

— عروس أبى ... أقصد الملك ... وإلى أين ؟

— إلى الفجر وسحره

ويأسى الأمير لهذا الجمال الذى سيذوى فى ظل والده الشيخ ويدرك من حديثها نقاء سريرتها فيدرج بها على العشب النضير هوناً .. يتسامران فتجرده من قلبه ولبه، ويأخذها بشبابه وحبه، ويبدو لها وجه الشيخ بلحيته المرسلة كأنه شيطان مريد ، وتنظر إلى ولى عهده فتدخل من عينيه الجميلتين إلى جنة الحب ، ويخفق له قلبها الغض المتعطش إلى الغرام ...

وفى غفلة من الدهر كانا يختلسان اللقاء على الربى وبين الخمائل، فهى لا تعرف السعادة إلا فى حضنه الفتى الحبيب ، وهو قد تدله بها فلا يعدل بقبلاتها المسكرة ما فى بطون الأرض وعلى سطحها من أذخار وكنوز ...

وينظر الملك إلى طول لبثها فى الحديقة فيرتاب ويحوطها بعيونه فتنقل إليه الأخبار ...

وعلى إحدى الربى وقف الملك مستتراً يرى العاشقين الصغيرين وكيف ينهلان السعادة ويستمع إلى وسوسة قبلاتهما الناعمة فيحرق الأرم ويستجمع ما تبخر من صبره ويولى عنهما هامساً بينه وبين نفسه :

— ليكن هذا بينهما لقاء الوداع

ويتأوه من أعماق نفسه ويهتف :

— أما وقد بليت أيضاً بحبها فستعيش هذه الفتاة لأن قلبى يريد لها الحياة ... أما هذا الوغد ... وهدد بقبضته فى الهواء ومضى لسبيله فى طريق القصر

* * *

وراح ولى العهد يستعرض أصدقاءه ليختار من بينهم من يعده بجيل يرحل عليها خفية إلى الحدود، فيقع اختياره على مدير البريد...

ويشفق مدير البريد أن ينكشف أمره فتناله يد الملك، فينقل إليه رغبة الأمير ...

ويأمر الملك بالقبض على ولده وإيداعه السجن، فتضبط أسلحته ونقوده وأوراقه التى دلت على مشروع محاولة استيلائه على الأراضى السفلى ودحر الملك ثم الجلوس على عرش أسبانيا. فأبلغ الملك الحادث إلى الجهات الكبرى وانتدب محكمة عليا برياسته لمحاكمة ولده

* * *

كان سجن الأمير غراماً على نفس الملكة فطوت جوانحها على حرق حبه ، وأضحت ذاهلة وانية ترى القصر كأنه قطعة من الجحيم ، وعزفت عن الطعام حتى رق جلدها وشحب لونها

ولقد تتجامل على نفسها التطوف بمجالس غرامها وأعشاش حبها تدب فى رفق كأنما قد حطمت قواها السنون ، فإذا جلست فى مكان ضمهما يوماً خيل إليها أنه إلى جانبها يضمها ويحنو عليها فتخشى أن يكون ذلك وهماً فتتحسسه بيديها فلا تقع على شىء فتقف فزعة وتحوم حول نفسها وتسقط صارخة :

— يا كارل ... ...

فتردد جوانب القصر صيحتها :

— يا كارل ...

وكان صفاء عينيها الجميلتين وتدلههما ينمان عما تكابده من حر الحب وبالغ الوجد

وينظر الملك إليها فيراها متلفة آيسة وقد أطفأ الحزن بريق عينيها فينهدم لها قلبه انهداما ويسألها عن سر وجومها واكتئابها فتنفجر باكية وتجثو عند قدميه .

ويعلم الملك أنه الحب فيستضحك حتى تبدو نواجذه ويمسك بيديها الصغيرتين ليهضها فتأبى إلا أن يسمع لشكاتها ...

— خير . أأستنزل لك من السماء نجما تقرين به عينا ياطفلتى الحبيبة ؟

— أتقسم على طاعتى فيما أرجوه منك .

— لك هذا .

— أن تطلق سراح ولدك .

فاربد وجه الملك وعبست أساريره وأشاح عنها قائلاً :

— أشغفك حبا ذلك الولد النزر ؟

— حباً ملك علىّ نفسى

— فلم لا تدفعين هذا الحب عن قلبك وهو لم يزل بعد وليداً ؟

— إنه ولد عاتيا قويا

— فلن أفرج عنه إذاً أبداً . وسأجعل من جسده للطيور طعاماً شهياً ...

ويظلم الفضاء فى نظر المسكينة وتقول وما تملك نفسها :

— فإذا ما قلت لك إنى سأقضى على نفسى وأحملك وزرى إن مسسته بسوء؟

ففكر الملك ثم فكر ... وفتقت له أفكاره حيلة

فدنا منها وقد زال أثر العبوس من وجهه قائلاً :

— إننى لم آمر بسجنه يا صغيرتى إلا لدفع بغيه عنى ، ولئن أطلقته ختر بميثاقه وأعاد المؤامرة بعد أن قتلها فى مهدها

— سيفيد من درسك هذا له عبرة

— أفتجعلين من ذمتك عهداً ألا يعيد الكرة ؟

فأبكاها فرط السرور لقرب انتصارها ومدت إليه يدها باسمة

— هذا عهد

فرقت لها نفس الشيخ وقال :

— إنى أعدك بالحكم ببراءته

فهزتها نشوة الفرح وطوقت عنقه قائلة :

— هل قلت إنك ستبرئه ؟

فطرب الملك لعناق فتاته وأعاد القول باسماً : لك هذا

وفى هدأة الفجر تسللت عروس الليل على أطراف قدميها وقلبها يخفق ويدها عليه ... حتى إذا ما اجتازت الباب السرى ركبت عربة كانت تنتظرها خارج القصر وانطلقت بها فى مسارب الوادى لتنقلها خفية إلى سجن الحبيب

وما اقتربت الملكة من باب السجن حتى تخلى عنه حراسه ، فطوت سلالم القبو أربعاً أربعاً ...

وألفت حبيبها الموموق مكباً على نضد عتيق وقد سقط رأسه الجميل على صدره تتناوبه فورات اليأس والحمى ؛ فلما رأى الملكة انتعشت نفسه وصاح : إيزا

— كارل

وألقت نفسها بين أحضانه وأهوت بقبلاتها على فمه وشعر الدون كارلوس بأنه فى حاجة إلى الحياة عن ذى قبل وأحس أن قوة هرقل قد حلت فيه وأن قوى العالم لن تستطيع إفلاتها من بين يديه ولو تكالبت عليه جميعاً وكان بعضهم لبعض ظهيراً

ولم يخف افترار ثغره عن عين طفلته الحبيبة ما رسمه الأسى على وجهه وما يلاقيه فى غياهب سجنه . فانتشرت نفسها عليه رقة ورحمة وأرسلت من عينيها عبرات حرارا ...

قال الدون كارلوس :

— لم البكاء يا إيزا وهو يتلف عينيك ؟

— ومن أحرى منى بطول البكاء ؟

— أنا ... لهول ما أفكر فيك ولفرط ما عاث الحب فى قلبى وأماتنى حياً لبعدك بيننا يحيا هذا العجوز الخيزبون بين أعطافك ناعماً بجمالك مخفرجاً فى ظلك ؟

ففاضت عيناها بالدمع فحبس عبراته وكبت عاطفته ، ولم تشأ أن تخبره بوعد الملك لها بتبرئته لعدم ثقتها بتنفيذ هذا الوعد وخشية أن يظن الدون كارلوس أنها خدعته إذا ما حنث الملك بوعده

حتى إذا أشرقت غرة الصبح انتزعت نفسها من بين أحضانه وعادت إلى القصر تتأوه من قلبها المعذب المفؤود

سيق الأمير إلى قاعة المحاكمة وقد بدا على وجهه الساهم علائم العناء. فلما رآه الملك عبس فى وجهه وبسر. وأخذت عينا الملكة الجميلتان ترسلان الدمع مدرارا فتنضو عن صدرها الجميل ثوبها لتخفيه فيه

وتقدم الدون كارلوس تنوء قدماه بحمل جسمه الوانى حتى انتهى إلى مقعد أعد له فجلس عليه وأخذ يردد الطرف بين الملك حينا وأعضاء المحكمة أحيانا فيزى على وجوههم مسحة الجد والاهتمام .

وقطع الملك رهبة السكون حيث أمر بابتداء المحاكمة فوقف المدعى (البرنس إيفولى) وألقى بيانا مسهباً عن محاولة الدون كارلوس الاعتداء على الذات الملكية بوضعه مشروعاً لاغتيال أبيه ومحاولته انتزاع الأراضى السفلى ، واختتم بيانه بطلب اعدامه

فتحرك الملك فى مقعده قليلا وقال بصوت هادىء :

— ألديك ما تقوله يا كارلوس ؟ .

فنهض الدون كارلوس متثاقلاً وقال بثبات :

إننى لا آنس فى وجه أحدكم رأفة ولا رحمة ، وكلكم كشق مقص القضاء، كل يتمم للاخر مهمة القضاء علىّ؛ بيد أننى أود أن أتلقى حكم إعدامى من شفتين غير شفتيك، فهل لى أن أرجو المحكمة أن تنطق مليكتى بهذا الحكم ؟

فرد المدعى قائلاً :

— ولكن الملك رأس الدولة ورئيس المحكمة

فهتف الدون كارلوس :

— والملكة جسم الدولة فهل تعيش رأس بلا جسم ؟ فاشتد غضب الملك وموجدته على ولده وتهامس قليلاً مع الأعضاء ، ثم اعتدل فى جلسته ونطق بالحكم

ودوى حكم إعدامه فى أذن الملكة كهزيم الرعد فاستهولته وهبت عجلانة إلى الدون كارلوس فاحتضنته وأخذت ترسل من عينيها إلى الملك شرراً كالقصر وهتفت صاخبة :